عناية المرأة بعلم الحديث

الأستاذة حكيمة حفيظي

جامعة الأمير عبد القادر–قسنطينة

تعد مشكلة المرأة من أهم المعضلات الفكرية والاجتماعية المطروحة على الساحة العالمية, منذ القرنين المنصرمين, ولعل من أسباب ذلك, التمايز بين المبادئ الحضارية والثقافية والعقدية بين عالمي الغرب والشرق, والتراكمات التاريخية المتواترة التي أثرت سلبا في أمتنا الإسلامية؛ من ذلك ما عانته المرأة ولازالت تعانيه في مجتمعنا المسلم, مما جعلها ميدانا بارزا لتضارب الآراء بين مختلف التيارات الفكرية, والعقدية, بخاصة إذا علم أن عدد النساء في العالم يربو عن نصف سكانه, فمن سيكون المذهب المنتصر في استقطاب عدد أكبر من المؤيدات لإيديولوجيته والمروّج لسلعته...؟

هذه الحقيقة التي كشفت الستار اليوم عن أهداف عالم الغرب في انتزاع الفرد المسلم من عقيدته وصرفه عنها بكل الوسائل الممكنة وإفراغه من كل قيمه الروحية والمادية, من خلال ما يروج له هذا العالم في دعوته الصارخة إلى العولمة, ومن ثم تتم له السيطرة, بل السيادة المطلقة على شعوب هذه المنطقة وعلى ثرواتها...

ومن أبرز القضايا التي تغلغل الغرب من خلالها لتنفيذ هذا المخطط, قضية المرأة؛ بزعمهم أن الإسلام أهدر حقوقها, وقيد حريتها, ومثيلتها التي تعيش في ظله هي القدوة... ومن ثم سينتصر في طمس الهوية الإسلامية, وسيقضي على هذا الدين من خلال التشكيك واللمز, وتصوير الفوارق بين ما وصلت إليه المرأة في الغرب من تقدم, وما هي فيه المرأة في الإسلام من جمود وتخلف.[1]

1- انظر: مشكلة المرأة في الفكر الجزائري، ص1-2

وبعيدا عن هذه الحقيقة, ولإيماننا العميق والصادق بأن الإسلام – على العكس مما يزعمون– كرم المرأة, ورفع من مكانتها, وعظم شأنها, ومنحها حقوقها كاملة غير منقوصة.

فإننا نهدف من خلال هذا المقال إلى تسليط الضوء على زاوية مشرقة من زوايا اهتمامات المرأة في الإسلام, لعلها تفيدنا في الوقوف على مكانة المرأة في هذا الدين, وذلك من خلال ما ذكرته لنا المصادر بشأن عنايتها بعلم الحديث, بخاصة إذا علمنا أن الكثير من أبناء ديننا يعتقدون أن هذا العلم ظل ولا يزال حكرا على الرجال دون النساء, إلى حد أن بعضهم ذهب إلى أنه علم يحبه رجال الأمة دون نسائها[1]. فإلى أي مدى يصدق هذا الرأي؟ وهل اعتنت المرأة بعلم الحديث؟ و ما هي مؤلفاتها فيه؟ وما هي أهم المصادر التي تفيدنا في الإطلاع على ذلك؟ هذا ما سنحاول معرفته من خلال هذه الوقفات الموجزة مع المرأة والحديث النبوي الشريف منذ عهد النبوة.

عناية المرأة بالحديث منذ فجر الإسلام إلى قرون عديدة من الزمن:

إن المرأة التي أهدرت حقوقها, وأهينت كرامتها, لمدة طويلة قبل الإسلام؛ حيث نظر إليها اليونان نظرة تسلط وغلبة, ونظر إليها الرومان نظرة المتعة والتسري, ونظر إليها الهنود نظرة الأمة المستعبدة المملوكة, ونظر إليها اليهود على أنها لعنة من السماء, وصب المسيحيون جام غضبهم عليها, ووأدها العرب في الجاهلية...., فإن الإسلام أعاد إليها كرامتها, وبين حقوقها, وعظم مكانتها؛ فهي الأم وما نزل من تعاليم تعلي من شأنها, وهي الأخت والبنت والزوجة والعمة والخالة... وما جاء من تعاليم ترفع من منزلتها إلى درجة أن معيار التفاضل بينها وبين غيرها من الناس هو" التقوى", فإن أتقى الناس لله أكرمهم عنده مصداقا لقوله تعالى:" يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل

1- انظر: مدخل إلى أصول الحديث، الحاكم النيسابوري، ص 146، من كلام الإمام الزهري.

لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم" (الحجرات 13)[1]، و من بين الحقوق التي ضمنها الإسلام للمرأة, حقها في العلم, بل يعد تعليمها من فروض الكفاية فيما يتعلق بمعرفتها أمور دينها ودنياها.

وقد شعرت النساء منذ فجر الإسلام بهذه الحاجة, فطلبن من النبي صلى الله عليه وسلم, تخصيصهن بمجلس يعلمهن فيه؛ فعن أبي سعيد الخدري, رضي الله عنه, قال: جاءت امرأة إلى النبي, صلى الله عليه وسلم, فقالت: يا رسول الله, ذهب الرجال بحديثك, فاجعل لنا من نفسك يوما نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله, فقال:" اجتمعن في يوم كذا وكذا في مكان كذا ", فاجتمعن, فأتاهن فعلمهن مما علمه الله.[2]

وكان عليه الصلاة والسلام يأمر بخروج النساء إلى صلاتي العيد, وإن كن على غير طهارة, كي يشهدن الخير, وحتى التي لا تجد جلبابا للخروج, أمرها باقتنائه ممن تملكه من أخواتها, على أن لا عذر لها, وذلك حرصا منه عليه الصلاة والسلام على تعليمها, فعن أم عطية, رضي الله عنها, قالت:" أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نخرجهن في الفطر والأضحى: العواتق والحيض وذوات الخدور؛ فأما الحيض فيعتزلن الصلاة ويشهدن الخير ودعوة المسلمين. قلت يا رسول الله, إحدانا لا يكون لها جلباب؟ قال: لتلبسها أختها من

---

1 رواه البخاري في العلم، باب هل يجعل للنساء يوم على حدة في العلم، 195/1.

2- رواه البخاري في الصلاة، باب وجوب الصلاة في الثياب، 466/1، ومسلم في العيدين، باب إباحة خروج النساء في العيدين، 178/6.

جلبابها".[1] وروت الشفاء بنت عبد الله العدوية قالت: دخل علي النبي صلى الله عليه وسلم، وأنا عند حفصة، فقال لي:" ألا تعلمين هذه رقية النملة، كما علمتها الكتابة".[2]

وكانت أمهات المؤمنين تتعلمن من النبي صلى الله عليه وسلم, وعلى رأسهن عائشة, رضي الله عنها, التي أصبحت مدرسة يقصدها الصحابة لطلب الحديث والفقه والعلم الذي تلقته من رسول الله, صلى الله عليه وسلم, وقد صنفها العلماء من ضمن السبعة المكثرين من الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم, وممن روى عنها من الصحابة: ابن عباس, وأبو هريرة...ومن التابعين: عروة بن الزبير, وعمرة بنت عبد الرحمن, وسعيد بن المسيب....

وعلى مثل هذه الحال كانت غيرها من أمهات المؤمنين والصحابيات؛ كأم سلمة, وميمونة, و حفصة, وصفية, وزينب بنت جحش, وأسماء بنت عميس, وأسماء بنت أبي بكر الصديق, وفاطمة بنت قيس, والربيع بنت معوذ, وأم قيس بنت محصن, وأم كرز, وأم هشام بنت حارثة الأنصارية, وأم كلثوم...مما يدل على أن المرأة المسلمة – مثل صنوها الرجل- أقبلت على طلب العلم منذ نزول الوحي.

ثم سارت التابعيات على هذه القدوة، واغترفن من هذا النبع الصافي, فبرزت منهن الكثيرات من اللواتي بلغن شأوا عظيما في علم الحديث, وعنهن أخذ كبار المحدثين, ونذكر من بينهن:

*عائشة بنت طلحة بن عبيد الله التيمية، أم عمران. روت عن خالتها عائشة، وعنها ابنها طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن، وحبيب بن أبي عمرو، وابن أخيها طلحة بن يحيى بن طلحة، وابن أخيها الآخر معاوية بن إسحاق، و فضيل بن عمرو، وعطاء بن أبي رباح،

1- رواه أبو داود في الطب، باب ما جاء في الرقى، 10/3.

2- ترجمتهن في الإصابة لابن حجر، وأسد الغابة لابن الأثير، وانظر عناية النساء بالحديث النبوي، في عبيدة مشهور، ص 57-58

وعمر بن سعيد وغيرهم. قال ابن أبي مريم عن ابن معين: "ثقة حجة"، وقال العجلي: "مدنية تابعية ثقة"، و قال أبو زرعة الدمشقي: "حدث عنها الناس لفضلها وأدبها"، وذكرها ابن حبان في الثقات. أخرج لها الستة.(1)

* صفية بنت شيبة بن عثمان بن أبي طلحة، لها رؤية، و قيل: لا تصح لها رؤية، روت عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن أم ولد شيبة بن عثمان، وعائشة، و أم حبيبة وغيرهم. روى عنها ابنها منصور بن عبد الرحمن الحجبي، وابن أخيها عبد الحميد بن جبير، وإبراهيم بن مهاجر وغيرهم، وذكرها ابن حبان في ثقات.(2)

* صفية بنت أبي عبيد بن مسعود الثقفية امرأة ابن عمر، رأت عمر بن الخطاب، وروت عن حفصة، وعائشة، وأم سلمة، و القاسم بن محمد بن أبي بكر . روى عنها سالم بن عبد الله بن عمر ونافع، وعبد الله بن دينار. قال العجلي: تابعية ثقة، وذكرها ابن حبان في الثقات. (3)

* عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زرارة المدنية الفقيهة, روت عن عائشة، وأم سلمة، ورافع بن خديج، وأختها أم هشام بنت حارثة. حدث عنها ابنها أبو الرجال محمد بن عبد الرحمن والزهري وآخرون.(4)

1- تهذيب التهذيب، ابن حجر، دار الفكر، ط1 (1404هـ 1985م)، 12/ 464

2-المصدر السابق،12/458 ـ 459

3- تهذيب التهذيب، 12/ 459

4ـ تهذيب الكمال، المزّي، 35/241، وانظر عناية النساء بالحديث النبوي، أبي عبيدة مشهور، ص 72.

قال القاسم بن محمد لابن شهاب: يا غلام أراك تحرص على طلب العلم, أفلا أدلك على وعائه؟ قلت: بلى. قال: عليك بعمرة, فإنها كانت في حجر عائشة. قال: فأتيتها فوجدتها بحرا لا يترف". [1]

* حفصة بنت سيرين أم الهذيل الفقيهة الأنصارية, سيدة جليلة، كبيرة القدر، من السيدات التابعيات, اشتهرت بالعبادة والفقه وقراءة القرآن والحديث؛ روت عن أم عطية، ومولاها أنس بن مالك وغيرهما. [2]

*أم الدرداء الصغرى الوصابية, فقيهة عالمة, واسعة الإطلاع, كثيرة الرواية؛ روت عن زوجها أبي الدرداء، وسلمان الفارسي، وعائشة، وكعب بن عاصم الأشعري، وأبي هريرة وغيرهم, حدث عنها جبير بن نفير، وأبو قلابة، وسالم بن أبي الجهد، و مكحول وغيرهم, قال الذهبي في ترجمتها:" السيدة العالمة الفقيهة". [3]

وتواصل التماسك بين حلقات هذه السلسلة, فأخذت عن هذه الطبقة طبقة أخرى من النساء، من أشهرهن في المائة الثانية والثالثة:

* عابدة المدينة, وكانت من المكثرات من الرواية؛ روت عن مالك بن أنس وعن جملة من علماء المدينة, وقيل, إنها تروي عشرة آلاف حديث. [4]

1- تهذيب الكمال، المزّي، 241/35

2- المصدر السابق، 151/35

3- المصدر السابق، 352/35

4- معجم أعلام النساء، رضا كحالة، 199/3. عناية النساء بالحديث النبوي، ص 75.

* علية بنت حسان مولاة لبني شيبان، زوجة إبراهيم بن مقسم، وكانت نبيلة عاقلة... وكان صالح المري وغيره من وجوه البصرة وفقهائها يدخلون عليها، فتبرز لهم وتحادثهم وتسائلهم.[1]

* ونفيسة بنت الحسن بن زيد بن سبط النبي, صلى الله عليه وسلم.[2]

ومن أشهر المحدثات في المائة الرابعة نذكر: فاطمة بنت عبد الرحمن, وفاطمة بنت أبي داود, وأمة الواحد بنت المحاملي.[3]

ومن أشهرهن في المائة الخامسة:

* فاطمة بنت أبي علي الحسن بن علي الدقاق, قرينة أبي القاسم القشيري صاحب" الرسالة", سمعت من أبي نعيم الإسفراييني، وأبي الحسن العلوي وأبي عبد الله الحاكم وغيرهم, قال الذهبي في ترجمتها:" الشيخة العابدة العالمة" .[4]

* وعائشة بنت حسن بن إبراهيم، أم الفتح الأصبهانية الوركانية, شيخة الحافظ إسماعيل بن محمد, قال الذهبي في ترجمتها:" الواعظة العالمة المسندة".[5]

* وكريمة بنت أحمد بن محمد بن حاتم المروزية التي حضر إلى دروسها المحدث الفقيه الخطيب البغدادي, وأبو عبد الله محمد بن نصر المعروف بالحميدي الأزدي, والمؤرخ الشهير

1- ترجمتها في سير أعلام النبلاء، الذهبي، 113/9

2- سير أعلام النبلاء، 106/10.

3- عناية النساء بالحديث النبوي، ص 77-78.

4- سير أعلام النبلاء، 479/18، عناية النساء بالحديث النبوي، ص 80.

5- سير أعلام النبلاء، 308/18

أبو المحاسن المصري, والسمعاني وغيرهم؛ حدثت بصحيح البخاري بمكة عن أبي الهيثم محمد بن المكي الكشميهني. [1]

* وعائشة بنت محمد بن الحسين البسطامي, وبيبي بنت عبد الصمد بن علي الهرثمية[2]

وأهم ما تميزت به النساء في هذه الفترة, عنايتهن بتدريس صحيح البخاري من مثل: فاطمة بنت محمد (ت 539 هـ), و شهدة بنت أحمد(ت 574 هـ), وزينب بنت عبد الرحمن(ت 615 هـ), إلى أن أطلق على الكثيرات منهن وصف المسندة, والعالمة, والمحدثة, والخطاطة... [3] وكان يحضر دروسهن عدد وافر من الطلاب.

كما أن من أبرز السمات للقرنين الرابع والخامس, هو تدوين المرويات في كتب السنة المعروفة، ولهذا نجد الكثيرات منهن اعتنين بحفظ هذه الكتب إجازة وسماعا, وتدريسها لطلبة العلم من مختلف الأمصار، ومن ذلك:

عنايتهن بالصحاح والسنن والجوامع والمسانيد والمعاجم والأجزاء الحديثية وغيرها, حتى بلغن في ذلك مبلغا عظيما.

* فدرست فاطمة الشهرزورية، وأم الخير فاطمة بنت علي, صحيح مسلم.

*وتفردت فاطمة الجوزدانية في وقتها برواية معجمي الطبراني, الكبير والصغير, وسمعتهما منها, عفيفة بنت أحمد القارفاني (ت 606 هـ), وسمعت منها كتاب " الفتن" لنعيم بن حماد, ومن عفيفة سمع ابن نقطة بعض مروياتها [4]

1- عناية النساء بالحديث النبوي، ص 81-82.

2-المرجع نفسه، ص 81-82.

3- المرجع نفسه ص 85

4- عناية النساء بالحديث النبوي، ص 88-89.

*وفاطمة بنت أبي علي الدقاق، سمع منها أبو البركات عبد الله الفراوي بعض مسند أبي عوانة.

* وعائشة بنت معمر درّست مسند أبي يعلى الموصلي الذي سمعته من سعيد بن أبي رجاء الصيرفي، وسمعه منها ابن نقطة بأصفهان.

* وزينب بنت مكي الحرانية التي ألقت الخطب على "المسند" للإمام أحمد بن حنبل.

* وشيخة الإمام الذهبي أمة الرحيم بنت محمد اليونيني، سمعت مسند النساء من مسند أحمد على والدها.

* وزينب بنت أحمد الكمال التي أجيزت من خلق في بغداد؛ درست مسند أبي حنيفة والشمائل للترمذي، وشرح معاني الآثار للطحاوي.

* وعجيبة الشيخة المعمرة سمعت عددا من العلماء، لها مشيخة في عشرة أجزاء، من مسموعها " مختلف الحديث" للشافعي، و" تاريخ البخاري" من عبد الحق اليوسفي. [1]

واستمرت النساء على هذه الحال في القرون: السادس، والسابع والثامن إلى الثالث عشر، وقد ذكر الدكتور أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان بعضا منهن في كل قرن[2]، وأشهر مسموعاتهن، واشهر من سمع منهن ممّا يطيل ذكره، ولكن لا نرى بأسا من ذكر بعض أشهر العلماء ممّن سمع منهن، وذاع صيته، وعظم باعه في علم الحديث.

1- المرجع نفسه، ص 88 إلى 92

2-المرجع نفسه، ص 92 إلى 109.

تحمل حفاظ الحديث من نساء محدّثات:

على الرغم من الظروف العصيبة التي توالت على الأمة الإسلامية بعد القرن الهجري السادس [1]، فإن المرأة المسلمة العالمة لم تتخلّف عن الركب المجاهد، ولم تثنها العوائق عن تبليغ العلم لمن هم أهله، ومن أشهر المحدّثين الذين تحمّلوا الحديث والعلم من نساء شيخات:

* الإمام أبو سعد السّمعاني (ت 562 هـ): ذكر في آخر مشيخته " التحبير في المعجم الكبير" النساء اللواتي كتب عنهن، فسرد تسعا وستين محدثة سمع منهن أو كتبن له إجازة بمروياتهن، فأثنى عليهن ونعتهن بحسن الأخلاق والعلم والورع. [2]

* الحافظ أبو طاهر السلفي(ت 576 هـ): روى عن الكثيرات من المحدّثات، فقد ذكر ابن الأبار في ترجمته أن بعض أصحابه جمع أسماء النساء منهن على حروف المعجم. [3]

* الإمام ابن الجوزي (ت 597 هـ): ذكر في آخر مشيخته أنه سمع من ثلاث نسوة. [4]

* الحافظ المنذري (ت 656 هـ): سمع بفسطاط مصر والقاهرة من صفاء العيش بنت عبد الله الأشرفية (ت 627 هـ)، الشيخة أم حسن فضّية بنت عنان ابن حميد السعدية (ت 635 هـ)، وأم الفضل كريمة بنت عبد الحق الشافعية (ت 641 هـ)، وعلّق فوائد عن الشيخة أم أبي العباس عزيزة بنت عبد الملك القرشية الهاشمية الأندلسية (ت 634 هـ)، وسمع من الشيخة الصالحة أم محمد خديجة بنت المفضل بن علي المقدسية الأصل الإسكندرانية المولد (ت 618 هـ)، قال المنذري:" حدثت بالكثير, وقيل إنها حدثت نيفا

1- عناية النساء بالحديث النبوي ، ص 93

2- المرجع نفسه، ص 23

3- المرجع نفسه، ص 37

4- المرجع نفسه، ص 38

وستين سنة..."، وسمع من شيخات بالقاهرة، والإسكندرية، وبغداد، و أصبهان، ونيسابور، وهمذان، ودمشق.[1]

* الإمام الذهبي(ت 784 هـ): سمع من جماعة من النساء, ذكر الكثيرات منهن في" معجم الشيوخ", وهذا قوله في إحداهن متحسرا عن فواته السماع منها, وهي أم محمد سيدة بنت موسى بن عثمان المارانية المصرية(ت 695 هـ): "وقد رحلت إلى لقيها, فماتت وأنا بفلسطين في رجب سنة خمس و تسعين و ست مائة", وقال:" كنت أتلهف على لقيها, ورحلت إلى مصر وعلمي أنها بطيبة, فدخلت فوجدتها قد ماتت من عشرة أيام..."[2]

* الإمام الحافظ, أمير المؤمنين في الحديث وخاتمة الحفاظ، ابن حجر العسقلاني (ت 852 هـ): ذكر الحافظ ابن حجر مجموعة من النساء اللواتي أجزن له أو قرأ عليهن بعض المصنفات وذكر السخاوي في ترجمته للحافظ, في باب سرد شيوخه الذين قسمهم إلى ثلاث طبقات, أنه سمع من عشرين امرأة من المرتبة الأولى من شيوخه الذين سمع منهم الحديث, وسمع من الثانية, مرتبة من أجاز له, من ثلاث وثلاثين امرأة, ولم يذكر في طبقة من أخذ عنه مذاكرة إلا ست الركب ابنة علي بن حجر أخت الحافظ.[3]

وبعد هذه الوقفات المضيئة والمختصرة من عناية النساء بعلم الحديث, نأتي إلى ذكر أهم ما تميزت به النساء في هذا الفن:

الوسط العلمي: من خلال حياة النساء المترجم لهن في كتب التراجم, وما ذكره الدكتور مشهور بن حسن, والدكتور محمد علي قاسم العمري, نرى أن أغلب النساء اللواتي كان لهن حظ العناية بعلم الحديث بخاصة, وبمختلف العلوم عامة, هن من بيوت علم

1- المرجع نفسه، ص 40 إلى 44

2- عناية النساء بالحديث النبوي، ص 45.

3-المرجع نفسه، ص 46، نقلا عن الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر

ورواية, سمحت لهن هذه الظروف العلمية العائلية بتحمل العلم وأدائه والرحلة من أجل طلبه, والحقيقة أن هذه الميزة برزت عندهن منذ عهد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم, والتي تعلموها بدورهم من سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم, القدوة في تعليم أهل بيته؛ فتخرجت على يديه عائشة، وأم سلمة، وصفية، وفاطمة، وزينب رضي الله عنهن...، وعلم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ابنته عائشة, وعلم أنس بن مالك رضي الله عنه ابنته أمينة[1]، وعلى دربهم سار التابعون؛ فعلم بهز بن حكيم ابنته بانة, وموزق العجلي مولاته ذرة...، وهكذا فعل كل من جاء بعدهم...

قال الدكتور محمد علي قاسم العمري في وصف هذه الحال: "إن كثيرا من هؤلاء لم يكن ليكفيه هذا في حق أهله وأبناء بيته, ولم يكتف بمجرد الرواية, كما كان حرصه على استيعاب جميع من في البيت من البنات والأولاد ليشمل الجميع من غير استثناء, فكانت الدربة والدراية وسعة الإطلاع, كما هو حال أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي في ابنتيه جويرية وزينب..."[2].

الرحلة في طلب العلم: على الرغم من أن الرحلة في طلب العلم لم تكن ميسورة حتى في حق الرجال, فإن المرأة المسلمة العالمة لم تفوت فرص الرحيل من أجل طلب العلم والاستزادة منه, كلما سمحت لها الأحوال بذلك؛ فرحلت عائشة بنت إبراهيم البعلبكية وتنقلت بين دمشق والقاهرة وبعلبك وغيرها. ورحلت خديجة بنت عبد الله بن سعيد السنتجيالي, حيث وردت بلاد الأندلس من مكة. ورحلت عائشة بنت علي بن محمد بن أبي

1- دراسات في منهج النقد عند المحدثين، محمد علي قاسم العمري، ص 428

2- المرجع نفسه، ص 429

الفتح المصرية إلى بيت المقدس. وتنقلت زينب بنت أحمد المقدسي بين مصر ودمشق والمدينة وبيت المقدس.[1]

وتكبدت جويرية بنت عمرو وزينب بنت أحمد بن عمر متاعب السفر في طلب الحديث, وألقتا مجالس الإملاء الحديثية في المدينة المنورة ومصر, وأقرأتا" سنن " الدارمي و"مسند عبد بن حميد", قصدتهما الطلبة من شتى بلاد الإسلام لتحمل العلم.[2]

نجاة المحدثات من الكذب المتعمّد في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم:

للمرأة أن تفخر بمجد سلفها من المحدثات في أنهن لم يتعمدن الكذب في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم, والدليل على ذلك, هذه الشهادة من الحافظ الذهبي, إمام علم الرجال قال:" ما علمت في النساء من اتهمت ولا من تركوها"[3]، وهذا لما امتزن به من عاطفة جياشة وورع يمنعهن من ذلك, وهذه مفخرة جليلة تحسب للمرأة المحدثة, تزيدها شرفا وفضلا.

نقد العلماء المرأة المحدثة: لقد سجلت المرأة في مجال علم الحديث سمعة مشرفة, حيث إن أقل ما يقوله النقاد فيها أنها مجهولة, وكلام الحافظ الذهبي السابق دليل على ذلك. لقد وصفها النقاد- بعد سبر مروياتها والنظر في عدالتها وضبطها, خاصة في القرون المجرية المتقدمة, لما كان النقاد أكثر جدية في نقد النساء من المتأخرين الذين قلما نجد منهم نقدا لامرأة, ومرد ذلك إلى جملة من الأسباب منها فتور الهمم في هذه الفترة-: بالشيخة, والمحدثة والخيرة والجليلة والعالمة والصالحة والمسندة...[4]

1- عناية النساء بالحديث النبوي ، ص 438.

2-المرجع نفسه، ص 90.

3- ميزان الاعتدال، الذهبي، 604/4. وانظر: عنايةالنساء بالحديث النبوي، ص 47

4- عناية النساء بالحديث النبوي، ص 444، وانظر: منهج النقد عند المحدثين، ص 443-444

الإنتاج العلمي للمرأة في علم الحديث: على الرغم من عناية المرأة بعلم الحديث وشغفها بتحمله وتدريسه فقلما تعثر في تراجم النساء على مصنفات تذكر لهن, اللهم إلا بعض المشيخات أوالأجزاء, بخلاف الحال عندالمحدّثين من الرجال[1]، ولعل السبب في ذلك يعود- كما ذكر ذلك الحسين آيت سعيد — إلى أنهن لا يشغلن حيزا كبيرا في باب الرواية كالذي يشغله الرجال، ولذلك لم يحضين من الدراسة بأكثر ممّا وجد[2]. ولهذا قال في الحكم على مروياتهن "...إن كن من المشهورات بالرواية وتحمل العلم، فهن ثقات، وإن كن غير مشهورات فهن مستورات فلا يمكن استعادة أحوالهن من أحد، لعدم معاشرة الرجال لهن، وعدم نقل ثقاتهن فيهز ما يخدش عدالتهن".[3]

المصادر والمؤلفات التي عنيت بإبراز جهود المرأة في علم الحديث:

على الرغم من أن المرأة لم تحظ بالقدر الوافر من الرواية مثلما تيسر ذلك للرجال, لأسباب متنوعة, لعل من أهمها, انشغالها بما هو أولى من أمور البيت والتربية...., أو الالتحاق بمجالس العلم يتعذر عليها في أحيان كثيرة؛ إما بسبب تعذر الرحلة إلى الطلب, أو لأسباب أخرى, فإنها دونت صفحات خالدة في سجل تاريخ علم الحديث, والشاهد على ذلك, كتب التراجم والرجال التي حفظت لها هذا الفضل, منذ فجر الإسلام إلى قرون طويلة, ومن أهم المؤلفات التي احتوت على ذلك – وهي كثيرة يصعب حصرها- نذكر ما يأتي:

"سير أعلام النبلاء "، و" العبر في خبر من غبر" للذهبي, و" شذرات الذهب" للسمعاني, و" الطبقات" لابن سعد, و" تهذيب الكمال" للمزي, و" تاريخ بغداد" للخطيب

1- منهج النقد عند المحدثين، ص 439.

2- في تحقيقه لبيان الوهم والإيهام، لابن القطان الفاسي، 286/1.

3- المصدر نفسه

البغدادي, و" تهذيب التهذيب"، و" تقريب التهذيب"، و" الدرر الكامنة" لابن حجر, و" الثقات" لابن حبان, و" الضوء اللامع" للسخاوي, و" تاريخ دمشق" لابن عساكر, و" الأعلام" للزركلي, و" أسد الغابة" لابن الأثير, و" الإصابة" لابن حجر, وكتب المشيخات, والبرامج, والأجزاء والأمالي, ومن بين آخر ما ألف في هذا الشأن, ما جمعه فضيلة الأستاذ رضا كحالة في معجميه:" معجم أعلام النساء" و" معجم المؤلفين"؛ حيث احتوى الأول على الكثيرات ممن وقعت عليه يده من تراجم للنساء في مختلف العلوم والفنون, كالشعر والفقه واللغة...وفيهن الكثيرات ممن اعتنين بالحديث, ولاشك أن هذا الإنتاج النفيس, قد كلف الأستاذ جهدا ووقتا ثمينين في التفتيش بين ثنايا الكتب المطبوعة والمخطوطة التي اعتنت بهذا الفن؛ وكوقفة سريعة على هذا الكتاب, فإنه ضم بين لوحيه, 2782 ترجمة للنساء, منها 1109 ترجمة لنساء برزن في الحديث والرواية خاصة، أي بنسبة 40%، ولم يستوعب.

وأما كتاب "التقريب" للحافظ ابن حجر, كنموذج لما ألفه الأئمة النقاد في هذا العلم؛ فإنه خص القسم الثاني من الكتاب لتراجم النساء, وهن قليلا ت العدد مقارنة بتراجم الرجال في القسم الأول منه؛ وقد جاوز عددهن فيه, الثلاثمائة بقليل, وثلثهن من الصحابيات؛ وثق ما لا يزيد عن عشرين امرأة, وحكم بالقبول على ما يزيد عن سبعين منهن, ولم يورد في أي منهن جرح أو تضعيف, وأما من أطلق عليهن حكم الجهالة, فواحدة, ولعل ذلك يزيد كلام الذهبي السابق فيهن قوة.[1]

وبعد, فيعد هذا المقال, وقفة متواضعة في نقل صورة وجيزة لمسيرة المرأة مع العلم في الإسلام من زاوية عنايتها بالمصدر الثاني للتشريع, سنة سيدنا وقدوتنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وأما أهم النتائج التي خلص إليها هذا المقال, فهي:

1- مذهب ابن حجر في المجهول، ص 145-146

1- على الرغم من بعض الخصوصيات التي طبعت مسيرة المرأة مع العلوم الشرعية عامة وعلم الحديث خاصة, فإنها دونت اسمها بحروف من ذهب في سجل تاريخ علم الحديث رواية ودراية, وأسهمت إلى جانب شقيقها الرجل في تحمل هذا العلم وحفظه وتبليغه...

2- إن أغلب المشتغلات بعلم الحديث, ينتمين إلى بيوت علم ورواية, أو جاه ورياسة.

3- بدأ ميل النساء إلى الحديث وشغفهن به يتقهقر بعد القرن الهجري السابع، والدليل على ذلك، أن أغلب المؤلفات في التراجم، والتي ألّفت في هذه الفترة تكاد تخلو من ذكر المحدّثات إلاّ العدد القليل[1]، ولهذا قال ابن القطان رحمه الله، يصف حال رواية المرأة عند المتقدمين والمتأخرين:" فإن أحاديث النساء متّقاة محذور منها قديما من أئمة هذا الشأن، إلاّ المعلومات منهن الثقات، فأمّا هؤلاء الخاملات القليلات العلم، اللاّتي إنّما اتفق لهن أن روين أحاديث آبائهن، أو أمهاتهن، أو إخوانهن، أو أخواتهن، أو أقربائهن بالجملة، بحيث يعلم أنه ممّا [...] لها، فأخذ [...]. قد روت العلم وتحملته، حملته إلى الآخذين عنها، فإن الغالب في هؤلاء أنهن من المستورات كمساتير الرجال".[2]

فالظاهر ممّا ذكره في هذا النص، أن قوله (قديما) لا ينصرف إلى عهد الصحابيات، ومن تبعهن ممّن كانت لهن عناية بعلم الحديث؛ لأنه قال في آخره: "فأمّا مثل عمرة بنت عبد الرحمان، وعائشة بنت طلحة، وصفية بنت شيبة، وأشباههن من ثقاتهن، فلا ريب في وجوب قبول روايتهن".[3]

1- عناية النساء بالحديث النبوي، ص 103-104

2- الوهم والإيهام، ابن القطان، 286/1

3- المصدر نفسه

4- على الرغم من اشتغال المرأة بعلم الحديث، فإنها لم تبرز فيه كمصنفة، إذ لا تكاد تذكرها مصنفات في هذا الفن. ولعل السبب يعود في ذلك إلى أنها ألّفت واندرست كتبها، أو أنها لا تزال مخطوطة، أو أن ظروفها الخاصة والاجتماعية حالت دون ذلك. أو لأسباب نجهلها قد جليها لنا المهتمون بالبحث في هذه المسألة.

5- لقد حظيت المرأة باهتمام كبار المحدثين، فجالسوها وحدثوها، وأجازوا لها وسمعوا منها، وتحملوا إجازاتها، واعترفوا بفضلها، وتتلمذوا عليها...[1]

6- أطلق العلماء على المرأة في هذا الفن ألقابا تنم على تكريمها وفضلها فيه.[2]

7- إن أهم ميزة تسجل للمرأة في هذا الفن، وهي مفخرة لها، سلامتها من رذيلة الكذب للتعمد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هذا وإن أصبنا فمن الله, وإن أخطأنا فمن نفسينا ومن الشيطان, الله نسأل العفو والعافية.

وصلى الله على سيدنا محمد, وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

1- دراسات في منهج النقد، ص 436-437

2- المرجع نفسه، ص 437-438